فتاة الخزان المظلم

رمضان مصطفى سليمان

في إحدى سهرات الخميس، حين كانت المدينة تُسدل عن كتفيها ضجيج النهار وتترك للبحر حقَّ الكلام، كنّا نجلس - نحن مجموعةً من الشباب والشابات - على الواجهة البحرية، نستعير من الموج هدوءَه ونستعير من الريح القليلة ما يكفي لنُقنع قلوبنا أن الحياة ما زالت تحتمل بعض الطمأنينة. كان مجلسنا هذه المرّة قريبًا من السفينة المهجورة الراسية عند طرف الميناء؛ تلك السفينة التي بدت في العتمة ككائنٍ عجوز نجا من الغرق، لكنه لم ينجُ من الذكريات.

كانت الأضواء البعيدة ترتجف فوق سطح الماء مثل أفكارٍ خائفة، وكنتُ أراقبها بصمتٍ يشبه الإنصات إلى نفسي. في داخلي شيءٌ غامض كان يستيقظ كلّما اقتربنا من ذلك المكان؛ كأن السفينة لا تحمل صدأ الحديد فقط، بل تحمل ما يتساقط من أرواحنا أيضًا: الخيبات المؤجلة، والأسئلة التي لا تجد شاطئًا.

قطعت الصمتَ إحدى الفتيات، وكانت تجلس قبالتي، يلامس ضوء المصباح ملامحها فيمنحها مسحةً من الغموض. قالت بصوتٍ خفيض، لكنه كان نافذًا كأنّه يخرج من بئرٍ بعيدة :

قرأتُ قصةً غريبة البارحة... عن رجلٍ كان يسمع أصوات من رحلوا كلّما اقترب من البحر.

ساد الصمت فجأة، لا ذاك الصمت الفارغ، بل الصمت الممتلئ بما لم يُقَل. تبادلنا النظرات، وكلٌّ منّا كان يخفي شيئًا في داخله، ذكرىً أو خوفًا أو اسمًا لا يريد أن يمرّ على شفتيه.

سألتها فتاة أخرى، وهي تضمّ ذراعيها إلى صدرها كأنّها تقي نفسها بردًا داخليًا:

وماذا كانت تقول له الأصوات ؟

ابتسمت الأولى ابتسامةً حزينة، ثم قالت:

كانت تقول له الحقيقة التي هرب منها طويلًا : أن الإنسان لا يخاف الموت، بل يخاف ما لم يعشه قبل الموت.

ارتجف شيءٌ في داخلي عند تلك الجملة. شعرتُ كأنها لم تكن تحكي عن بطل القصة، بل عني. عن ذلك الجزء الصامت في

روحي الذي ظلّ يؤجل الحياة بحجة الوقت، ويؤجل الاعتراف بحجة الكبرياء، ويؤجل الحب بحجة الخوف من الفقد.

نظرتُ نحو السفينة المهجورة، فخيّل إليّ أن نوافذها المعتمة عيونٌ تحدّق بنا، تسمع حديثنا، وتعرف هشاشتنا أكثر مما نعرفها. قلتُ، دون أن أشعر أنني أتكلم :

ربما نحن أيضًا مثلها... راسون في مكاننا، لا نغرق، لكننا لا نبحر .

التفتت الأنظار إليّ، وفي وجوههم دهشةٌ خفيفة، كأنني قلت ما كان الجميع يخشاه. سألني أحد الأصدقاء:

ولماذا لا نبحر ؟

ابتسمتُ بمرارة، وقلت :

لأن البحر لا يخيفنا بعمقه، بل بما قد يكشفه فينا .

في تلك اللحظة، شعرتُ أن الحوار لم يعد بيننا نحن الجالسين فقط، بل بين كلّ إنسانٍ وهاويته الخاصة؛ بين صورته التي يعرضها للناس، وصورته الحقيقية التي يخفيها في عتمته. كانت الفتاة تتابع قصتها، لكنني كنتُ قد بدأتُ أقرأ قصتي أنا، في داخلي.

أدركتُ أن السفن لا تهجر الموانئ وحدها، بل الأرواح أيضًا تهجر أصحابها حين يطيلون الصمت. وأننا، في تلك السهرة، لم نكن نستمتع بنسمات الهواء القليلة فحسب، بل كنّا نقترب - دون قصد - من أكثر مناطقنا النفسية هشاشة: ذلك المكان الذي نعترف فيه أخيرًا أننا جميعًا، مهما بدونا متماسكين، لسنا سوى بشرٍ نحاول النجاة من أنفسنا.

خزانُ الليل

حكاية العزلة التي التهمت إنسانًا، والسرّ الذي ابتلع جلّادَه

في أطراف السهول الموحشة، حيث كانت الأرض تمتدّ بلا نهاية كصفحة قدرٍ قاسٍ لم يكتب عليها سوى الجفاف، قامت مزرعة صغيرة في زمام روزاريو، على مسافة من بوينس آيرس، كأنها ندبة قديمة في خاصرة العالم.

لم تكن المزرعة بيتًا بقدر ما كانت منفى؛ بقعةً نسيها الناس، وتذكّرها الخوف.

هناك عاش الفرنسي جان جايوما، رجلٌ بدا كأنه خُلق من صمتٍ متيبّس. كان طويلًا على نحوٍ يوحي باليباس، كتفاه حادتان كزاويتين من حجر، وعيناه غائرتان تحملان ظلال سهرٍ قديم لا ينتهي. يحيط نفسه بكلبين متوحشين، أسودين كليلٍ بلا قمر، وبندقيةٍ لا تفارق كتفه، حتى ليخيّل للناظر أنه لا يحرس مزرعةً، بل يحرس قبرًا لم يطمئنّ بعد إلى موت من فيه.

كان يمشي حول كوخه كل مساء بخطوات محسوبة، يرمق الأفق كما لو أنّ الأرض نفسها قد تنشقّ وتفضح ما خبّأه.

وفي داخله، كان صوتٌ آخر يمشي معه.

لن يصمد السرّ إن اقتربوا... التراب خائن، والليل أحيانًا أخرس من أن يحذّرني.

كان جان يعرف أن الإنسان لا يعتاد الجريمة، بل يعتاد الخوف بعدها.

الخوف وحده هو الذي يصير عادةً يومية: في شربة الماء، في حفيف الريح، في نباح الكلاب، في صرير الخشب إذا تنفّس البيت.

وحين جاء المفتش السري فرناندز فيرا إلى تلك البقعة النائية، لم يكن يطارد سوى خيوط عصابة فارة من جزيرة نائية، ظنّ أن

أثرها ربما مرّ من هنا. غير أن القدر، بسخريته السوداء، كان قد أعدّ له صيدًا أشدّ هولًا من رجال المافيا؛ صيدًا يختبئ في قلب الصمت نفسه.

كان فرناندز رجلًا يقرأ النفوس كما يقرأ آثار الأقدام. منذ اللحظة الأولى، استوقفه شيء في جايوما؛ ذلك التوتر الذي يسبق الكلمة، والعداء الفوري لكل اقتراب، والطريقة التي كانت أصابعه تنقبض بها على البندقية كلما ذُكر الكوخ.

قال له فرناندز وهو يتأمل المكان:

تعيش هنا وحد ك؟

أجابه جان بصوتٍ أجشّ خرج كأنه لم يُستخدم منذ أيام:

وحدتي أكثر وفاءً من البشر.

ابتسم المفتش ابتسامة خفيفة، لكن عقله كان يشتغل في طبقات أعمق:

هذا ليس جواب رجلٍ يحب العزلة، بل جواب رجلٍ يخاف الشهادة.

كان الكوخ غرفةً واحدة، جدرانها من طين متشقق، وسقفها من جذوع أشجار هرمة تشبه عظامًا مكشوفة. رائحة الرطوبة والعطن تسكن الزوايا، والهواء نفسه كان ثقيلاً كأنّه مرّ على أفواه كثيرة مكتومة.

خلف الكوخ، استلقى خزان ماء قديم، مقلوبًا على فوهته، حتى بدا غطاؤه مثل شاهد قبر. لم يكن في شكله ما يلفت، لولا أن فرناندز لمح حوله آثار أقدام متكررة، أعمق من أن تكون مصادفة، وأحدث من أن يبتلعها الغبار.

دخل المفتش الكوخ، وفتّش كل زاوية: صندوق خشبي، بطانية خشنة، بقايا طعام، رصاصات، مصباح زيت. لا شيء.

لا شيء سوى ذلك الصمت الذي كان أثقل من الأثاث كله.

همَّ بالانصراف، لكن أذنه ـــالتي علّمها الشك أن تصغي لما وراء المسموع ـ التقطت صوتًا خافتًا.

نقرًا واهنًا... ضربة، ثم سكون، ثم ضربة أخرى، كأن روحًا في جوف الأرض تجرّ أظفارها على باب العالم.

تجمّد في مكانه.

التفت ببطء نحو الخزان.

في تلك اللحظة، شعر جان بأن قلبه يهوي في داخله كحجرٍ في بئر.

لا... ليس الآن... ثماني سنوات من الصمت، لماذا تختار الليلة أن تتكلم ؟

صرخ بخشونة :

لا تقترب! مجرد حيوان عالق !

لكن نبرته كانت خائنة. لم تكن نبرة رجل يفسّر، بل نبرة رجل يتوسّل.

تقدّم فرناندز، وأزاح الغطاء الثقيل.

انبعث أولًا هواءٌ بارد، رطب، مشبع برائحة عفنٍ قديم، ثم خرج صوت غريب، أقرب إلى مواء قطة تحتضر.

وحين اخترق الضوء جوف الخزان، ارتدّ المفتش خطوة كأن الظلام بصق في وجهه حقيقةً لا تُحتمل.

في قاع الظلمة، انكمش جسد بشري حي. هيكلٌ نحيل، ذراعان كعودين يابسين، جلد شاحب بلون الرماد، وشعر متلبّد طال حتى صار جزءًا من العتمة.

كانت العينان مغمضتين بعنف، كأن الضوء سكين، وكأن النهار شيءٌ لم تعد الذاكرة تعرفه إلا بوصفه ألمًا.

همس فرناندز، وقد انكسرت صلابته المهنية للحظة :

يا إلهي... إنها فتاة.

سحبها إلى الخارج بحذر، كما لو كان ينتشل بقايا روح من بئر الزمن.
ارتجفت حين لامست الشمس جلدها، وانكمشت كمن يُلقى في نار.

حاولت أن تتكلم، فخرجت من فمها حروف مكسّرة، متعثرة، كأن اللغة نفسها صدئت في حلقها.

كانت تنظر إلى الوجوه بذعر حيوانٍ جريح، ثم ترفع بصرها إلى السماء في فزع، كأن هذا الاتساع الأزرق وحشٌ آخر لا تعرفه.

أما جان، فكان واقفًا كجذع محترق. في داخله، لم يكن يسمع سوى صوتٍ واحد:

انتهى الأمر... ليس لأنهم وجدوها، بل لأنني طوال هذه السنوات كنت أنا المحبوس معها.

اقتاده الجنود بعيدًا، لكن عينيه ظلّتا معلّقتين بالخزان، بذلك القبر الحديدي الذي ظنّه حصنًا، فإذا به مرآة.

مرآةٌ رأى فيها نفسه أخيرًا:

ليس رجلًا قويًا، ولا حارسًا لسرّ، بل سجين خوفه، وجلّادًا التهمته جريمته ببطء.

*

قال الأطباء بعد فحص الفتاة إن عقلها تآكل تحت وطأة العزلة والظلام، وإن اللغة انطفأت في مناطق كاملة من وعيها.

ثمانية أعوام من الليل المصمت كانت كافية لتحطيم الذاكرة، وكسر الإحساس بالزمن، وتشويه العلاقة بين الإنسان والعالم.

لم تعد تعرف الشمس، ولا أسماء الأشياء، ولا حتى اسمها. كانت إذا رأت الماء ترتجف، وإذا سمعت صوت إغلاق باب تصرخ كأن القيامة قامت في رأسها.

لكن المأساة الأعمق لم تكن في جسدها الهزيل، بل في النفس التي خرجت من الخزان وما زال نصفها عالقًا هناك.

كانت تنام فترفع ذراعيها حول رأسها، كما لو أنّ السقف ما زال واطئًا فوقها.

وكانت تصحو مفزوعة من حلمٍ واحد يتكرر:

ظلام، صمت، ونقرة بعيدة على جدار لا يجيب.

أما فرناندز، فقد ظلّ بعد القضية زمنًا طويلًا يحدّق في الليل من نافذته، ويتساءل في مرارة وجودية:

كم من البشر يعيشون فوق الأرض وهم في الحقيقة مدفونون في خزاناتهم الخاصة ؟

خزانات من خوف، من قهر، من صمت اجتماعي طويل يجعل الأرواح تتآكل دون أن يراها أحد.

لقد أنقذ الفتاة من الحديد، نعم .لكن من ينقذ العالم من خزاناته المعنوية ؟

من يرفع الأغطية الثقيلة عن أرواح حُبست في زنازين الأسرة، المجتمع، العنف، والخذلان ؟

في تلك السهول البعيدة، ظلّ الخزان بعد رحيل الجميع مفتوحًا، فاغرًا فوهته نحو السماء، كأنه شاهدٌ أبدي على أن أقسى السجون ليست تلك التي تُبنى من الحديد، بل تلك التي يبنيها الإنسان في قلبه، ثم يسكنها طوعًا حتى يفقد مفاتيحه.

وهكذا انتهت الحكاية، لا بانكشاف جريمةٍ فحسب، بل بانكشاف هشاشة الروح البشرية:

كيف يمكن لثمانية أعوام من الظلام أن تمحو اللغة ؟ ، وكيف يمكن لثمانية أعوام من الذنب أن تمحو الإنسان من نفسه ؟ .

بقيت الشمس في ذلك اليوم ساطعة على غير عادتها، كأنها أرادت أن تقول للفتاة، وللعالم كله:

إن النور، مهما تأخر، يعرف الطريق دائمًا إلى أكثر القبور نسيانًا.

ثم جاءت راشيل
عندما انكسر القلب وسقط العقل

ثم جاءت راشيل.

لم تأتِ إلى حياته كامرأةٍ وحسب، بل كاستعارةٍ أخيرة للنجاة، كنافذةٍ انفتحت في جدارٍ كان يضيق عليه يومًا بعد يوم، حتى كاد يختنق بروحه. في ذلك المطعم المتواضع على أطراف مرسيليا، حيث تختلط رائحة الحساء الرخيص بملح البحر وعرق العمّال العائدين من أرصفة الميناء، رآها أول مرة. كانت تجلس قرب النافذة، ينساب الضوء الشاحب على ملامحها فيمنحها هالةً من رقةٍ بعيدة، كأنها لا تنتمي إلى ذلك المكان المكدود.

منذ اللحظة الأولى، أحسّ أنها ليست امرأةً عابرة، بل جوابًا متأخرًا عن سؤالٍ قديم كان يسكنه:

هل يمكن للحياة أن تمنح المنكسر فرصةً أخرى ؟

كان فقيرًا إلى حدّ أن جيوبه لا تحتفظ إلا بفتات النقود، لكن روحه - على فقرها - كانت ما تزال قادرة على الحلم. وحين ابتسمت له، أحسّ أن العالم، بكل قسوته، قد أرجأ أحكامه قليلًا.

تكررت اللقاءات. مقعدان خشبيان، مائدة صغيرة، حديث يتكاثر من الصمت أكثر مما يتكاثر من الكلمات. كانت راشيل تعرف كيف تُصغي، وكيف تنظر إلى الرجل كأنها ترى فيه ما لا يراه هو في نفسه. وهذا وحده كان كافيًا ليجعلها قدرًا.

قال لها ذات مساء، وصوته يرتجف بين الرجاء والخوف :

أريد أن أبدأ من جديد... معكِ.

رفعت عينيها إليه ببطء، وفي عينيها ذلك الوميض الذي يشبه الوعد :

وأنا أيضًا تعبت من البدايات الناقصة.

في تلك الليلة تعاهدا على الزواج، لا بخواتم ولا شهود، بل بجوعٍ مشترك إلى حياةٍ أقل قسوة. كانا يملكان من المستقبل ما يملكه الفقراءُ دائمًا :**الوهم الجميل.**

لكن الفقر، ذلك الوحش الصامت، كان أسرع من أحلامهما.

شيئًا فشيئًا، صار الواقع ينهش الوعد. الإيجار المتأخر، الخبز اليابس، الأيام التي تمر بلا عمل، نظرات الناس التي تُذكّر المرء دومًا بأنه أدنى من حقه في الأمل. كانت راشيل أكثر حساسيةً من أن تحتمل هذا الموت البطيء، وأكثر خوفًا من أن تصير نسخةً أخرى من النساء اللواتي يذبلهن الانتظار.

ثم جاء القرار.

الهجرة إلى بوينس آيرس.

قالت له وهي تضمّ يديه بين كفّيها، كأنها تخشى أن يتسرّب منهما ما تبقّى من الدفء :

سأذهب أولًا. سأعمل هناك، أرتّب كل شيء، ثم تأتي إليّ. سنبدأ الحياة التي حلمنا بها.

كان الوداع في الميناء طويلًا كجرح. السفينة تبتعد، ووجهها يبتعد معه، لكنه ظلّ متشبثًا بالصورة الأخيرة: يدها المرفوعة، وابتسامتها التي كانت تعده بمستقبلٍ أكثر رحابة.

ومن هناك بدأت الرسائل.

كانت تصل إليه محمّلةً بعطرٍ خفيف، كأنها تريد أن تنقل إليه مدينةً كاملة في ظرفٍ صغير. يفتح الرسالة بيدين مرتجفتين، فتنساب الكلمات كالماء على أرضٍ عطشى:

تعال... هنا الأرض تفيض خيرًا، والسماء أرحب، والحياة تبدأ من جديد.

في كل رسالة كانت تبني له فردوسًا صغيرًا من الكلمات: شوارع واسعة، فرص لا تنتهي، بيت صغير بشرفة تطل على الأشجار، غرفة دافئة، وضحكة تنتظره عند الباب.

تعلّق بتلك الرسائل كما يتعلق الغريق بخشبة نجاة في بحرٍ متلاطم. صار يعيش عليها، لا على الخبز. يدّخر من تعبه القاسي، من ساعات العمل التي تسحق ظهره، من الجوع الذي يتقاسمه مع وحدته، فقط ليصل إليها.

وكان داخله صوتان يتصارعان.

صوتٌ يقول :

هي تنتظرك. العالم لم يغلق أبوابه بعد.

وصوتٌ آخر، أكثر ظلمةً، يهمس :

كل وعدٍ جميل يحمل في جوفه خنجرًا.

لكنه كان يقتل ذلك الصوت بالرجاء.

وبعد شهورٍ من الادخار والتعب، وصل أخيرًا.

كانت بوينس آيرس أكبر من خياله، مدينةً لا تنام، تضجّ بالعربات، بالوجوه، بالموسيقى المتسربة من الحانات، وبحزنٍ خفيّ يسكن الأرصفة المبتلة. سار في شوارعها كمن يطارد طيفًا يعرفه ولا يعرفه، يحمل عنوانًا قديمًا ورسائل صارت حروفها مهترئة من كثرة ما قرأها.

بحث عنها طويلًا.

في الفنادق الرخيصة، في المطاعم الصغيرة، بين المهاجرين، عند الميناء، في الحيّ الذي أخبرته عنه في إحدى الرسائل. وكلما ضاقت به الطرق، اتسعت داخله هوة القلق.

ثم عثر عليها. لكن ليس كما تخيّلها.

لم يجد المرأة التي كانت الأنوثة تطغى على ملامحها برقةٍ ناعمة، ولا تلك العينين اللتين كانتا تُشعرانه أن العالم يمكن احتماله. وجد امرأةً أخرى، كأن المدينة أعادت صنعها من مادةٍ أكثر قسوة.

كان الملهى رخيصًا، غارقًا في ضوءٍ أحمر يلطخ الوجوه بشبهة السقوط. الموسيقى صاخبة، ضحكات الرجال ثقيلة، والهواء مشبع برائحة الخمر والعطر الرخيص والدخان.

وهناك، على منصةٍ صغيرة، رآها. كانت ترقص.

لكنها لم تكن ترقص بجسدها فقط؛ كانت ترقص بما تبقّى من كرامةٍ جُرّدت منها، بما تبقّى من حلمٍ مات. كانت حركاتها حادّة، باردة، متقنة بطريقةٍ توحي بأن الروح لم تعد تسكنها، بل تستعملها فقط لتكسب ليلةً أخرى.

وفي اللحظة التي التقت فيها عيناه بعينيها، شعر أن شيئًا ما انطفأ في داخله.

لم تكن نظرتها نظرة دهشة، ولا حنين، ولا حتى ذنب. كانت نظرة شخصٍ تجاوز ماضيه حتى صار يكرهه.

انتظر حتى انتهت، ثم لحق بها إلى الممر الخلفي الضيق. كانت الجدران متآكلة، والمصباح المرتجف يزيد المكان بؤسًا.

نادى بصوتٍ خرج مبحوحًا من قاع قلبه :

راشيل.

التفتت ببطء. حدّقت فيه لحظةً طويلة، ثم ارتسم على شفتيها شيء يشبه الابتسامة، لكنه لم يكن ابتسامة؛ كان سخريةً باردة.

اقترب منها، كمن يخشى أن يوقظ الكابوس إن رفع صوته :

جئتُ لأفي بوعدنا... متى نتزوج ؟

ساد صمتٌ قصير، لكنه في داخله امتدّ كعمرٍ كامل.

ثم ضحكت.

ضحكة صغيرة، قصيرة، لكنها في أذنه كانت انهيار عالمٍ كامل، كأن السماء نفسها تشققت فوق رأسه.

قالت ببرود امرأةٍ صقلتها الحياة الرخيصة حتى فقدت ملمسها الإنساني :

أتزوجك ؟ أنا متزوجة... وأكره حتى رؤيتك.

لم تكن الكلمات وحدها ما قتله، بل الطريقة التي قالتها بها: بلا تردد، بلا أسف، بلا ظلّ واحد من الذكرى.

في تلك اللحظة لم ينكسر قلبه فحسب. انكسر منطقه. انكسر ذلك النظام الدقيق الذي كان يربط الأشياء بمعانيها: الوعد بالوفاء، الحب بالنجاة، السفر باللقاء، التعب بالمكافأة. فجأةً صار كل شيء عبثًا، كأن العالم ليس إلا مسرحًا للسخرية السوداء.

داخل رأسه بدأت الأصوات.

هل كانت تكذب منذ البداية ؟ هل كانت الرسائل حقيقية ؟ هل أحبّتني يومًا، أم كنتُ مجرد جسرٍ عبرت عليه نحو حياةٍ أخرى ؟

تراجع خطوةً إلى الوراء، لكنه أحسّ أن الأرض نفسها تتراجع من تحته. نظر إليها، فلم يرَ راشيل وحدها، بل رأى كل خيباته متجسدةً في وجهها: أمه التي ماتت فقيرة، أباه الذي علّمه أن الرجال لا يبكون، ليالي الجوع في مرسيليا، السنوات التي قضاها يرمم نفسه بوهمٍ اسمه الغد.

همس داخله صوتٌ وجوديّ مرعب :

إذن لا شيء كان حقيقيًا. لا الحب، لا الوعد، لا المستقبل... حتى أنا.

شعر أن ذاته تتشقق من الداخل. كان كمن يقف أمام مرآةٍ يرى فيها وجهه يتفتت إلى وجوهٍ غريبة. جزءٌ منه أراد أن يصرخ، أن يهزّها، أن يسألها :**لماذا ؟**

وجزءٌ آخر أدرك، في برودةٍ ميتة، أن السؤال نفسه بلا معنى.

قال لها أخيرًا، بصوتٍ بدا غريبًا حتى على أذنه :

ومن أنا الآن، بعدك ؟

نظرت إليه بلا اكتراث، وعدّلت خصلةً من شعرها، ثم قالت :

أنت رجل جاء متأخرًا. هذا كل شيء.

ورحلت.

بقي وحده في ذلك الممر، يحدّق في الفراغ الذي تركته خلفها، كأنها لم تخرج من المكان بل خرجت من حياته كلها، تاركةً بابًا مفتوحًا على الجنون.

خرج إلى الشارع مترنحًا. كانت المدينة صاخبة كما هي، العربات تمر، الناس يضحكون، الليل يواصل حياته غير عابئ بانهيار رجلٍ واحد. وهنا تحديدًا شعر بأشد أنواع الوحدة قسوة:

أن ينهار عالمك، بينما يظلّ العالم الخارجي ثابتًا، وقحًا، مستمرًا.

مشى بلا وجهة.

كان حواره الداخلي يتكاثر كدوامة:

كيف يمكن لقلبٍ واحد أن يحتمل هذا القدر من الخذلان ؟ هل الجنون هزيمة، أم هو آخر أشكال النجاة ؟

ربما العقل نفسه كذبة اخترعناها لنؤجل السقوط.

كل زاوية في المدينة بدت له مرآةً لخرابه. الوجوه بلا ملامح، الأصوات بلا معنى، والسماء نفسها بدت منخفضةً كأنها تضغط على رأسه.

هناك، عند حافة نهرٍ يعكس أضواء المدينة المرتجفة، وقف طويلًا.

لم يبك

كان الألم قد تجاوز البكاء إلى منطقةٍ أبرد، منطقةٍ يصبح فيها الإنسان شاهدًا على تحطمه بدل أن يكون ضحيته فقط.

فهم أخيرًا أن ما قتله ليس خيانة امرأة، بل انهيار الفكرة التي عاش عليها: **أن الحب قادر على إنقاذ الإنسان من هشاشته.**

حين تسقط هذه الفكرة، يسقط معها كل شيء.

ابتسم فجأة، ابتسامةً خفيفة مخيفة، كمن أدرك سرًا لا يطيقه العقل.

ثم همس للنهر، أو لنفسه، أو للعدم الذي تمدد داخله :

ربما لم أخسرها هي... ربما خسرتُ آخر نسخةٍ بريئة من نفسي.

ومن تلك الليلة، لم يعد الرجل الذي جاء إلى بوينس آيرس هو نفسه الذي سار في شوارعها بعد أن غادرت راشيل.

كان في داخله شيءٌ قد مات. وشيءٌ آخر، أكثر ظلمة، قد وُلد.

خزانُ الظِّلال

حكايةُ رجلٍ هرب من الناس، فسكنته أشباحُه

اشترى المزرعةَ النائيةَ قرب روزاريو كما يشتري المرءُ منفىً أخيرًا لا عنوان له.

لم يكن يبحث عن أرضٍ يزرعها، بل عن صمتٍ يدفن فيه ما تبقّى من نفسه.

هناك، على أطراف السهول التي تتلوّى فيها الريح مثل أنينٍ قديم، بنى كوخًا غريبًا؛ واسعًا بما يكفي لجسدٍ حي، وموحشًا بما يكفي لروحٍ ميتة.

كان يشبه قبرًا كبيرًا تُرك بابه مواربًا، كأنّ الموت نفسه لم يحسم أمره بعد.

عاش فيه مع كلبين فقط؛ كلبان هزيلان يحرسان العزلة أكثر مما يحرسان المكان.

كانا يتبعانه بصمتٍ غريزي، كأنهما أدركا أن صاحبهما لم يعد من البشر تمامًا، وأن شيئًا ما في داخله قد انكسر ولم يعد يُرمَّم.

هرب من المدينة، من الوجوه، من الأسماء، من المقاهي التي تحفظ ضحكات العابرين، من الأرصفة التي تذكّره بخطواتها... لكنه لم يستطع أن يهرب من **راشيل**.

كانت راشيل تسكنه كما تسكن الرطوبة جدران البيوت المهجورة؛ لا تُرى، لكنها تفسد كل شيء.

في الليل، حين تتكاثف الظلال في زوايا الكوخ، كان يسمع ضحكتها الرنانة تتدحرج فوق الخشب العتيق، فيلتفت مذعورًا كأنها تقف خلفه تمامًا.

وفي الصباح، حين يذهب إلى البئر ليغرف الماء، يلمح وجهها في اللمعان الفضي المرتعش على السطح؛ وجهًا يتكوّن ثم يتمزق مع أول حركة.

كان يجلس طويلًا في العتمة، مصباحٌ زيتيٌّ يئنُّ بضوءٍ شحيح، ويحدّث نفسه كما لو أنّ في داخله رجلين:

واحدٌ ما زال يتألّم، وآخر تعلّم أن يجعل الألم فلسفة.

قال في إحدى الليالي، وصوته كخشبٍ يحترق ببطء :

لم تخنّي هي وحدها... كلُّ النساء يخنّ.

ثم سكت لحظة، كأن العبارة لم تُشفِ غليله، فأضاف :

الجمالُ نفسه خيانة. الوجوهُ الجميلةُ أفخاخٌ تنصبها الحياةُ للقلوب الساذجة.

كان منطقه يلتهمه كما يلتهم الصدأ نصلًا منسيًّا. شيئًا فشيئًا، صار الانتقام لديه أكثر اتساقًا من الرحمة، وأكثر عدلًا من الصفح.

لم يعد يرى العالم كما هو؛ بل كما تركته راشيل في داخله: مكسورًا، ملتوياً، مريبًا.

*

وذات عصرٍ كانت فيه روزاريو تفيض بضوءٍ نحاسيٍّ شاحب، نزل إلى المدينة لقضاء بعض الحاجات.

كان يمشي بين الناس كغريبٍ هبط من زمنٍ آخر، كتفاه منحنِيَتان، وعيناه تتفحّصان الوجوه بلا اكتراث... حتى رآها.

تجمّد في مكانه.

فتاةٌ يافعة كانت تقف عند ناصية شارعٍ ضيق، تحمل سلةً صغيرة من الخبز .شعرٌ أسود فاحم ينسدل على كتفيها كليلٍ بلا قمر، عينان واسعتان تبرقان ببراءةٍ غير محروسة، وبشرةٌ خمرية دافئة كأرضٍ ابتلّها المطر، وملامح ...

تلك الملامح. ملامح راشيل.

ليس الشبه في التفاصيل فقط، بل في ذلك الوميض الغامض الذي يسبق الابتسامة، في انحناءة العنق، في الطريقة التي ترفع بها وجهها إلى الضوء كأنها تصادق السماء.

اسمها، كما عرف بعد دقائق، **أوريليا بونيفورت**.

لكنّه، في تلك اللحظة، لم يرَ أوريليا. رأى الماضي يخرج من قبره، يمشي نحوه على قدمين ناعمتين. رأى الجرح نفسه يعود في هيئةٍ أصغر سنًّا، أكثر هشاشة، وأكثر قابليةً لأن يُمسك به أخيرًا.

قال داخله، بصوتٍ باردٍ كالمعدن :

ها أنتِ عدتِ. ظننتِ أن الزمن يخبّئك ؟

اقترب منها بصوتٍ رقيق يناقض الإعصار في صدره.

سألها عن الطريق أولًا، ثم عن اسمها، ثم ترك الحديث يتفرع بخبرة صيادٍ يعرف كيف يطيل الحبل قبل أن يشدّه.

كان لطيفًا على نحوٍ يثير الثقة.

حدّثها عن المزرعة، عن الفراخ التي تركض خلف الحبوب، عن الخنازير الكسولة في الوحل، عن الحقول التي يلمع فوقها الندى، وعن الهواء الطلق الذي "يغسل القلب من ضيق المدينة." ثم أخرج من جيبه حلوى مغلّفة بورقٍ ذهبي، ومدّها إليها بابتسامةٍ وادعة.

قال:

أحيانًا، يحتاج الإنسان إلى يومٍ واحدٍ فقط ليتذكّر أن الحياة ليست جدارًا مغلقًا. تعالي غدًا... سترين الغروب هناك، وستنسين كل شيء.

كانت أوريليا تعيش مع عمّتها في بيتٍ قديم يكاد يكون قطعةً من الماضي السحيق؛ أبوابٌ تصرّ عند الفتح، وستائر باهتة، وحياةٌ تدور في حلقةٍ ضيقة بين السوق والمطبخ وصمت الأمسيات. رأت في دعوته نافذةً صغيرة على فرحٍ نادر، وممرًّا سريًّا نحو الأحلام التي كانت تجرؤ فقط على تخيّلها.

فذهبت معه.

*

في المزرعة، كان المساء يهبط ببطءٍ مهيب.

السماء تميل إلى حمرة الغروب، كأنها صفحةُ قلبٍ قديمٍ كُتبت عليها خسارات كثيرة.

جلسا قرب الكوخ، وأمامهما أكواب شاي الـ**برباميت** يتصاعد منها بخارٌ عطريّ يلتف في الهواء مثل أرواحٍ صغيرة.

أوريليا كانت تنظر إلى الأفق بإعجابٍ طفولي.

قالت وهي تبتسم :

لم أرَ السماء واسعةً هكذا من قبل. كأنها لا تنتهي.

تأملها طويلًا. طريقة رفعها للفنجان. بطء الرشفة. الهدوء الذي ينساب في ملامحها. الضوء الأحمر العالق على خدّها.

كلُّ شيءٍ فيها كان يوقظ أشباح راشيل.

وفي رأسه، بدأ الحوار الداخلي يشتعل كحريقٍ تحت الرماد:

أترين ؟ حتى السماء انحازت إليكِ... كما انحاز كل شيءٍ إليها.

لكن هذه ليست راشيل .

بل هي وجهُها الثاني. النسخة التي أرسلها القدر كي يُصلح ميزانه.

إنها بريئة **البراءة قناعٌ أوليٌّ للخيانة.**

تسلّل صوته إلى الخارج أخيرًا، فقال لها بنبرةٍ غامضة :

هل تؤمنين أن الوجوه قد تعود؟ أن الناس لا يموتون، بل يختبئون في ملامح آخرين ؟

نظرت إليه باستغرابٍ خفيف، ثم ضحكت ضحكةً قصيرة بريئة:

ربما... أو ربما نحن من نبحث عمّن يشبه خساراتنا.

أصابته عبارتها كطعنة.

للحظة، شعر أنها قرأت داخله. أنها رأت الخراب الذي يحاول تغليفه بالهدوء.

همس لنفسه :

نعم... أنا أبحث. ومن وجد، لا يرحل خالي اليدين.

*

حين هبط الليل، صار العالم حول الكوخ كتلةً من حبرٍ بارد. لم يعد يُسمع سوى صرير الحشرات ونباحٍ بعيدٍ متقطّع.

أوريليا قامت تستعدّ للرحيل.

قالت بلطف :

يجب أن أعود. عمّتي تقلق سريعًا.

ابتسم. ابتسامةٌ لم تصل إلى عينيه.

قال :

قبل أن تذهبي... أريد أن أريك شيئًا في الداخل. شيئًا جميلاً احتفظتُ به منذ سنوات.

ترددت لحظة، ثم تبعته.

في الكوخ، كان الضوء خافتًا، والهواء أثقل من الخارج . الجدران الخشبية بدت كأنها تنصت .

خطت أوريليا خطوتين، ثم التفتت نحوه بشيءٍ من القلق.

سألته:
ما هذا المكان ؟

أجابها بصوتٍ منخفض، بدا كأنه يخرج من بئرٍ سحيق:

مكانٌ لا يكذب. هنا، تظهر الوجوه كما هي.

شعرت بانقباضٍ مفاجئ. تراجعت خطوة .لكن شيئًا في نظرته جعل الدم يبرد في عروقها.

قالت بصوتٍ مرتجف:

سيدي... أظنني سأعود لاحقًا.

اقترب ببطء، كمن يقترب من حقيقةٍ انتظرها طويلًا.

ثم قال، وقد بدأ القناع يسقط عن وجهه:

تعودين؟ كما عادت هي؟ كما تركتني في منتصف العمر مثل بيتٍ محترق ؟

ارتبكت:

أنا لا أفهم عمّا تتحدث !

صرخ فجأة، صرخةً خرجت من قاع سنواته :

لأنكِ هي ! أو صورتها ! أو ذنبها الذي عاد يمشي !

كانت كلماته لا تتجه إليها، بل إلى امرأةٍ أخرى غائبة، إلى شبحٍ قديمٍ لم يجرؤ يومًا على مواجهته. لم يكن يرى أوريليا، بل مرآةً تحمل وجه خيبته.

في داخله، دار آخر حوارٍ بين ما تبقّى من إنسانه وما نما من وحشته:

اتركها... هذه ليست إلا فتاة.

بل هي الجرح وقد تجسّد .

لن يلتئم جرحك بجرحٍ آخر .

بل لن يصمت إلا إذا سمع الصدى نفسه يتألّم.

وعندما حسم جنونه أمره، انقضّ عليها كظلٍّ انفلت من صاحبه.

كمّم صرختها المرتجفة، وقيّد يديها، ثم جرّها عبر الممرّ الخلفي نحو خزان الماء القديم القابع خلف الكوخ؛ ذلك الخزان

الحجري الذي طالما رآه كقلبه تمامًا: عميقًا، باردًا، وممتلئًا بما لا يطفو.

فتح الغطاء الصدئ، فتناهى من الداخل صدى رطوبةٍ ثقيلة.

نظر إليها طويلًا.

في عينيها لم يرَ راشيل. رأى خوفًا بشريًا خالصًا، هشًّا، حقيقيًا. ورأى نفسه منعكسًا فيه: رجلًا لم يعد يعرف هل ينتقم من امرأة، أم من ذاكرته، أم من صورته التي حطّمتها الخيانة.

للحظةٍ خاطفة، اهتزّ شيءٌ في داخله. همست عيناه بما لم يستطع لسانه قوله :

متى تحوّلتُ إلى ما كنتُ أهرب منه ؟

لكن الليل كان قد ابتلع السؤال.

وقف فوق الخزان، والريح تعصف حوله، والكلبان ينبحان بعيدًا كأنهما يعترضان على مصيرٍ لا يفهمانه.

وكان داخله يتداعى بصمت؛ لا كغضبٍ هذه المرة، بل كانهيار معنى.

فهم أخيرًا، متأخرًا، أن راشيل لم تسكن الفتاة... بل سكنته هو.

وأن أشدّ السجون ظلمةً ليست تلك المبنية من حجرٍ وماء، بل تلك التي يُغلقها الإنسان على نفسه بفكرةٍ واحدة: أن جرحه يمنحه الحق في أن يصير جرحًا للآخرين.

هناك، عند حافة الخزان، لم يعد الليل خارج الكوخ فقط. كان الليل قد اكتمل فيه.

وصار الرجل الذي هرب من البشر، أقرب ما يكون إلى الشبح الذي ظلّ يطارده منذ البداية.

حين صار الليلُ حفرةً في الروح

منذُ تلكَ الليلة، لم يعد الزمنُ هو الزمن.

لم تعد الأيامُ تُعرفُ بشروقِ الشمسِ أو ميلانِ الظلال، ولا عادتِ الساعاتُ تُقاسُ بعقاربَ باردةٍ تدورُ فوق جدار. صار للوقتِ ميزانٌ آخر، أكثرُ وحشيةً، لا يضبطهُ إلا مقدارُ الرعبِ الذي يفيضُ في القلب، واتساعُ الصمتِ بين صرخةٍ لا تُسمع وأخرى لا تجرؤُ على الولادة.

كان يتركها في الظلامِ أيامًا؛ أو هكذا كانت تظن.

ففي العتمةِ تفقدُ الأيّامُ أسماءها، وتذوبُ الحدودُ بين صباحٍ لم تره، وليلٍ لم يعد له معنى. هناك، داخل ذلك الخزان الضيّق، كانت الحياةُ تنكمشُ إلى أنفاسٍ متقطعة، ورطوبةٍ تلتصقُ بالعظام، ورائحةِ خشبٍ عتيقٍ كأنّه شاخَ من فرطِ ما شهد.

ثم، في لحظاتٍ لا تأتي إلا كالكابوس، كان الغطاءُ يُفتح.

لا ينفتحُ كغطاءِ صندوق، بل كبوابةٍ سوداءَ تنشطرُ في سقفِ الجحيم.

شريطٌ من ضوءٍ باهتٍ ينسكبُ فوق وجهها المرتجف، فيلسعُ عينيها اللتين نسيتا شكلَ النور. تمتدُّ يدُه إليها، لا كيدِ إنسان، بل ككلّابٍ يهبطُ إلى بئرٍ ليجرَّ منه ما أُلقي حيًّا.

يسحبها كما لو كانت شيئًا منسيًّا في باطن الأرض، شيئًا بلا اسم، بلا ماضٍ، بلا حقٍّ في الألم.

وفي الخارج، كان العالمُ أكثرَ قسوةً لأنه أوسع.

ينهالُ عليها، فيما يركلُ كلبيه لتتعالى نباحاتهما بجنونٍ مدرَّب، كأنهما جزءٌ من الطقسِ نفسه؛ جوقتانِ من الفوضى خُلقتا خصيصًا لابتلاعِ صوتها. كانت صرخاتها تتكسّرُ في الهواء، تذوبُ

في النباح، وتضيعُ كما تضيعُ قطرةُ مطرٍ في بحرٍ هائج. لكن ما كان يحدثُ في الداخل، في داخلها هي، كان أفدحَ من كلّ ما يراه الجسد.

كانت تهبطُ، ببطءٍ مروّع، إلى قاعِ النفس.

إلى تلك المنطقةِ السفلى من الروح، حيث لا لغةَ تسعُ ما يجري، ولا زمنَ يربطُ اللحظةَ بما قبلها، ولا ذاكرةَ تثقُ بنفسها. هناك، كانت أفكارُها تتفتّتُ مثل زجاجٍ رقيقٍ تحت قدمٍ ثقيلة.

في البداية، كانت الأسئلةُ تأتي واضحة:

هل ما زال النهارُ موجودًا ؟ هل ما زالت السماءُ زرقاء ؟ هل ما زلتُ أنا ؟ هل كنتُ طفلةً يومًا، أركضُ في فناءٍ مضاء، وأضحكُ من شيءٍ صغيرٍ لا أذكره ؟

ثم بدأت الأسئلةُ نفسها تبهت، كحروفٍ يغمرها الماء.

صار عقلُها يحدّثها بصوتٍ آخر، صوتٍ يشبهها ولا يشبهها.

قالت لنفسها ذات مرّة، وهي تلتصقُ بجدارِ الخزان البارد:

"ربما لم تكن هناك سماءٌ أصلًا. ربما اختلقتها ذاكرتي كي لا أموت

ثم جاءها صوتٌ من داخلها، أعمق، أكثر هدوءًا، كأنه يخرجُ من امرأةٍ عجوزٍ تسكنُ خلفَ عينيها:

"بل كانت هناك سماء. كنتِ تنظرين إليها طويلًا، وتعدّين الطيور

ارتجفت.

من المتكلّم ؟ أهي نفسها قبل أن تنكسر ؟ أم شبحُ تلك الطفلة التي كانتها ؟

صارت تحاورُ ظلالَها كي تبقى حيّة.

تسألُ الجدار :كم مرّ من الوقت ؟

فيجيبها الصمتُ، لكنه لم يعد صمتًا فارغًا، بل صمتٌ كثيفٌ له وزنٌ ولون، صمتٌ يهبطُ عليها كغطاءٍ ثانٍ.

وتسألُ نفسها:

إن خرجتُ يومًا، هل سأعرفُ الطريقَ إلى وجهي ؟

فيأتيها الجوابُ من أعماقٍ بعيدة :

الوجوهُ لا تضيع، لكنها تختبئُ حين يكثرُ الألم.

كانت أكثرَ ما تخشاه ليس الضرب، ولا الجوع، ولا العتمة. بل ذلك التحوّل البطيء الذي يجري في داخلها.

أن تعتاد. أن يصبح فتحُ الغطاء حدثًا مألوفًا. أن يصير الخوفُ أثاثًا ثابتًا في الروح. أن تتصالحَ مع فكرةِ أن العالمَ ليس إلا دائرةً من ظلمةٍ وجوعٍ وصوتِ غطاءٍ يُفتحُ أحيانًا.

*

ذات ليلةٍ، حين انشقّ السقفُ عن ذلك الشقّ الضوئي المعتاد، لم ترتجف كما كانت تفعل. رفعت عينيها فقط، ونظرت إلى الخيطِ النازل من الضوء كمن ينظرُ إلى نجمٍ بعيد.

همسَت في سرّها:

"هذا ليس بابَ الجحيم... هذا الدليلُ الوحيدُ أن فوقي عالمًا آخر

وكان هذا الاكتشافُ الصغيرُ أشبهَ بشرارةٍ في رمادٍ بارد.

للمرّة الأولى، لم يكن الضوءُ نذيرَ عذابٍ فقط؛ صار أيضًا برهانًا على وجودِ الخارج.

على وجودِ سماءٍ ما، حتى لو لم ترها. على أن العتمةَ ليست كلَّ شيء. على أن الخراب، مهما اتّسع، ليس الكونَ كلَّه.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ شيءٌ خفيٌّ ينمو فيها.

ليس أملًا كاملًا، فالأملُ كلمةٌ كبيرةٌ على روحٍ مسحوقة، بل مجرّد عنادٍ صامت.

خيطٌ رفيعٌ من الرفض، من فكرةٍ صغيرةٍ تقول:

"لن أسمحَ لهذا المكان أن يكون تعريفِي الأخير

كانت تستعيدُ نفسها في شذرات. رائحةُ خبزٍ قديم. يدُ أمٍّ تمسحُ شعرها.نافذةٌ نصفُ مفتوحة. ضحكةُ صديقةٍ تسبقها في زقاقٍ مدرسي. سماءٌ زرقاء، نعم، كانت زرقاء فعلًا. كلُّ ذكرى كانت تنتشلُ جزءًا من روحها من القاع.

وفي حوارها الداخلي، صار الصوتان يتمايزان بوضوح: صوتُ الخوف يقول:

استسلمي، هذا هو العالم.

وصوتُها العميق، الوليد من الرماد، يردّ :

لا. هذا قفصٌ داخل العالم، وليس العالم.

حين كان الغطاءُ يُفتحُ بعد ذلك، لم تعد ترى فيه بابَ الجحيم وحده، بل نافذةَ احتمال.

كانت تراقبُ التفاصيل. صريرَ المفصلات. ثقلَ الخطوات. زمنَ النباح. المسافةَ بين الصمتِ ويده. الخوفُ نفسه تحوّل إلى يقظة.

وفي أقصى العتمة، حيث حسبَ الجميعُ أن النفسَ تموت، كانت نفسُها تعيدُ تشكيلَ ذاتها كمن ينحتُ تمثالًا من الألم.

صارت تقولُ لنفسها:

"أنا لستُ ما يحدثُ لي. أنا ما يبقى مني بعده

وكانت هذه الجملةُ تكبرُ في صدرها كلّ ليلة، حتى غدت جدارًا داخليًّا تتكئُ عليه كي لا تنهار.

العجيبُ أن الإنسان، حين يُسلبُ منه كلُّ شيء، يكتشفُ أن ما لا يُسلبُ هو المعنى.

وهي، في ذلك الخزان، كانت تعيدُ اختراعَ معنى وجودها.

لم تعد تفكّرُ في النجاةِ بوصفها خروجًا من المكان فقط، بل خروجًا من الصورةِ التي أرادها لها: كائنًا مكسورًا، منزوعَ الإرادة، بلا ملامح.

كانت تقاومُ بالنظر. بالتذكّر. بالكلماتِ التي تهمسُ بها لنفسها كي لا تصيرَ الصمت.

وحين أغمضت عينيها في آخر تلك الليلة، لم ترَ العتمة.

رأت حقلًا بعيدًا، تركضُ فيه طفلةٌ بثوبٍ أبيض، تلتفتُ إليها وتبتسم.

سألتها بصوتٍ مبحوح :من أنتِ ؟

فأجابت الطفلة، بصوتٍ يشبهُ فجرًا يتشكّل :

أنا أنتِ... التي لم تمت بعد.

عندها فقط فهمت.

أن الجحيمَ الحقيقيّ ليس المكان، بل أن تصدّقي أنه قدرك. وأن الخلاص يبدأ من اللحظةِ التي تستردّين فيها اسمكِ من بين أنيابِ الخوف.

ومنذ تلك الليلة، بدأ زمنٌ آخر حقًا. زمنٌ لا يُقاسُ بالرعب، بل بمقدارِ ما استعادتهُ روحُها من نفسها.

ثمانية أعوام على حافة العدم

ثمانية أعوام.

ليس رقمًا يُعَدّ، بل هاويةٌ زمنيةٌ كاملة، تتساقط فيها الأيام كحبات رمادٍ بارد، وتذوب فيها الذاكرة حتى لا يعود الإنسان متأكدًا إن كان ما يزال حيًّا، أم أنه مجرد صدى روحٍ نسيَت طريق العودة.

ثمانية أعوام قضتها **أوريليا** داخل ذلك الكوخ المنسيّ عند طرف الغابة؛ كوخٌ لم يكن بيتًا، ولا حتى سجنًا بالمعنى المألوف، بل كان امتدادًا ماديًّا لعقلٍ مكسور، عقل رجلٍ اسمه **جايوما**، خرج من الحرب بنصف جسدٍ ونصف قلب، وترك النصف الآخر نهبًا لندوبٍ لم يرها أحد.

في الداخل، كان الضوء شحيحًا كرحمةٍ متأخرة. نافذة ضيقة في أعلى الجدار تسمح لخطٍّ رفيع من الشمس أن يتسلل كل صباح، كأنه إصبع سماويّ يربّت على كتفها ثم ينسحب عاجزًا.

كانت أوريليا تجلس تحت ذلك الخيط من النور كمن يجلس تحت شجرة أمنيةٍ بعيدة. ترفع وجهها قليلًا، تغلق عينيها، وتدع الدفء يلامس جبهتها، ثم تهمس في سرّها:

ما زال العالم موجودًا إذن... ما زالت الشمس تعرف الطريق إليّ.

لكن العالم خارج الكوخ لم يكن يصلها إلا أصواتًا: حفيف الأشجار، نباح كلب بعيد، وقع خطوات جايوما الثقيلة، وصوت المفتاح حين يدور في القفل كل مساء، كأنه إعلان رسميّ بأن الليل قد حُكم عليها من جديد.

لم يكن يضربها دائمًا بدافع الغضب.

وهذا ما جعل الأمر أكثر رعبًا.

أحيانًا كان يدخل هادئًا، يحمل إليها الطعام، يضعه بصمت، ثم يظل واقفًا يحدّق في وجهها طويلًا، حتى تشعر أن نظراته لا تراها هي، بل ترى شخصًا آخر يسكن ملامحها.

امرأة أخرى.

امرأة ماتت، أو هجرته، أو خانته، أو ربما لم توجد إلا في رأسه.

وفي تلك اللحظات، كانت أوريليا ترى في عينيه صراعًا مريرًا بين حنينٍ لا يموت، وكراهيةٍ لا تجد مخرجًا إلا جسدها.

كان يقترب أحيانًا، يرفع خصلة شعرٍ عن وجهها، ويتمتم بصوتٍ أجشّ:

لماذا عدتِ ؟

فتجيبه بنبرة مرتجفة :

أنا لستُ هي.

عندها يتبدل وجهه . يتصلب فكه، تضيق عيناه، ويعلو في داخله شيء يشبه انكسار الزجاج.

بل أنتِ هي... الصوت ذاته، النظرة ذاتها، وحتى هذا الصمت اللعين.

ثم يصفعها، لا لأنها أخطأت، بل لأنها لم تستطع أن تكون امرأةً لم تعرفها يومًا.

*

في السنوات الأولى، قاومت أوريليا بفكرة النجاة. كانت تعدّ الأيام على الجدار بأظافرها، ثم توقفت حين امتلأت الجدران بخدوشٍ تشبه قبورًا صغيرة.

بعد العام الثالث، لم تعد تعدّ الزمن، بل صارت تعدّ نفسها.

أنا أوريليا.

كانت تكرر الاسم في داخلها كل ليلة، كمن يحرس آخر شمعةٍ من ريح النسيان.

أنا لستُ صورته عنها. لستُ شبح حبيبته. لستُ ذنبه القديم. أنا أنا.

لكن الهوية حين تُحاصر طويلًا تبدأ بالتآكل.

كم مرة حدّقت في انعكاسها الباهت في إناء الماء، وسألت نفسها في خوفٍ وجوديّ خانق:

من أكون، إن كان العالم لا يراني إلا مرآةً لامرأة أخرى ؟

وكان السؤال أشد قسوةً من الضرب.

لأن الألم الجسدي ينتهي، أما الشكّ في الذات فيستقر كسمٍّ بطيء داخل الروح.

أما جايوما، فكان هو الآخر سجينًا، لكن قضبانه لم تكن من خشب الكوخ، بل من ذكريات الحرب.

كل ليلة، كان يسمع الصرخات نفسها.

أصدقاؤه يسقطون في الوحل.

النار تلتهم الخيام.

وجه المرأة التي أحبها يبتعد في الضباب.

رصاصة لم تصب رأسه، لكنها أصابت اتزانه إلى الأبد.

كان يجلس خارج الكوخ، قرب جذع شجرة ميتة، يحدّق في الفراغ، ويكلم أشباحه.

أنا أنقذتها... أليس كذلك ؟

يصمت قليلًا، ثم يضحك ضحكة جافة .

لا، أنا حبستها كي لا ترحل مثل الأخرى.

في داخله كان يعرف الحقيقة، لكن الاعتراف بها كان يعني انهياره الكامل.

هو لم يكن يحميها. كان يحتمي بها.

اتخذ من وجهها ضمادًا لجراحه، ثم حين فشل الضماد في وقف النزيف، مزّقه فوق جسدها.

ذلك هو الوجه الأعمق للمأساة: أن يتحول المجروح إلى صانع جراح.

*

في العام الثامن، بدا كل شيء كأنه يستعد لحدثٍ لا يُرى.

الهواء أثقل من المعتاد. الغابة صامتة. وجايوما أكثر اضطرابًا.

دخل عليها في تلك الليلة بعينين محمرّتين، كأنهما لم تعرفا النوم منذ أسابيع.

هل تكرهينني ؟ سأل فجأة.

رفعت رأسها ببطء.

كان السؤال أغرب من العنف نفسه.

تأملت وجهه طويلًا؛ وجه رجلٍ أنهكته الحياة حتى صار يشبه خرابًا بشريًّا.

قالت بصوتٍ خافت، لكنه نافذ كحد السكين:

أنا لا أكرهك، يا جايوما... أنا أشفق على الجزء الذي مات فيك، فقتل كل ما بقي.

تراجع كأن الكلمات صفعته.

لأول مرة، لم يردّ. جلس على الأرض المقابلة لها، ودفن رأسه بين يديه.

كنتُ أحبها.

أعرف.

وحين رحلت... صار العالم كله يشبه خيانتها.

فحوّلتني إلى قبرٍ لها.

رفع رأسه، وعيناه غارقتان في ماءٍ لم يعرف كيف يذرفه.

وأنتِ؟ كيف بقيتِ حيّة ؟

ابتسمت أوريليا ابتسامة باهتة، كضوء قمرٍ على ماءٍ مكسور.

لأنني رفضتُ أن أراك قدري. كنتُ أقول لنفسي كل ليلة: هذا ليس العالم، هذا مجرد جرحٍ بشريّ اتخذ شكل كوخ.

صمت طويل تمدد بينهما.

في تلك اللحظة، بدا أن الكوخ كله ينصت.

ثم جاء الصوت. طرقاتٌ على الباب. ثلاث طرقات حاسمة، بطيئة، تشبه ضربات قدرٍ تأخر كثيرًا لكنه لم ينسَ العنوان.

انتفض جايوما واقفًا. تجمّد وجهه.

أما أوريليا، فقد شعرت بشيء يشبه ارتطام الضوء بقلبها.

عاد الطرق، أقوى هذه المرة.

افتح! تفتيش رسمي!

كان صوت المفتش حادًّا، قاطعًا، كأنه مشرط الحقيقة.

نظر جايوما إلى الباب، ثم إليها، ثم إلى المفتاح المرتجف في يده.

في داخله دارت حربه الأخيرة:

أن يتمسك بوهمه حتى النهاية، أو يترك الواقع يقتحم الخراب الذي بناه.

همست أوريليا، بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

دع النور يدخل.

ارتجفت أصابعه. ثم سقط المفتاح من يده على الأرض.

ذلك الرنين المعدني الصغير بدا كأنه انهيار ثمانية أعوام دفعةً واحدة.

*

حين فُتح الباب، اندفع الضوء إلى الداخل ككائنٍ حيّ، لا كإشعاع. اجتاح الزوايا، كشف الغبار، لامس وجه أوريليا، فارتعشت كما لو أن الشمس تعرّفت إليها أخيرًا.

خرجت بخطوات مترددة، كطفلة تتعلم المشي من جديد.

العالم في الخارج بدا هائلًا، جارحًا في اتساعه.

السماء واسعة إلى حدّ البكاء. الأشجار عالية كأنها حراس أسطوريون. والهواء... الهواء نفسه كان معجزة.

ملأت رئتيها به حتى شعرت أن صدرها يتشقق من الحياة.

لم تكن فقط فتاة نجت من سجن. كانت روحًا عادت من حافة العدم.

أما جايوما، فوقف بين رجال العدالة كتمثالٍ هشّ لذنبٍ إنسانيّ معقّد. لم يكن وحشًا خالصًا، ولا ضحيةً خالصة. كان إنسانًا حطمته الحرب، ثم سحقه الفقد، ثم التهمه جنون الانتقام من شبحٍ لا اسم له.

لكن الجنون لا يمحو الجريمة.

والألم لا يمنح أحدًا حق تحويل الأبرياء إلى أكياس رملٍ لندوبه.

لقد عذّبها لا لذنبٍ اقترفته، بل لأنها تشبه امرأةً أخرى. كأن الشبه وحده صار حكمًا بالإدانة.

أي قسوةٍ هذه التي تجعل الملامح تهمة ؟

وأي بؤسٍ نفسيّ يجعل الإنسان ينتقم من ماضيه في جسد شخصٍ لم يعشه؟

*

بعد خروجها، ظل سؤال واحد يرافق أوريليا في الليالي الطويلة:

هل يمكن للروح أن تُشفى من مكانٍ عاشت فيه كل هذا الموت؟

كانت تعرف أن السجن الحقيقي لم يكن الكوخ وحده.

السجن الأعمق هو الخوف الذي يحاول أن يستقر في الذاكرة، أن يقنعها بأن العالم كله بابٌ مغلق، وأن كل حبٍّ قيد، وكل وجهٍ قناع.

لكنها قاومت. راحت تستعيد ذاتها ببطء :اسمها. صوتها. حقها في الضوء. حقها في أن تُرى بوصفها نفسها، لا بوصفها شَبَهًا لأحد.

وفي كل مرة كانت تنجح في الضحك، أو في النظر إلى السماء دون خوف، كانت تشعر أنها تنتزع حجرًا آخر من ذلك السجن الداخلي.

وهكذا أثبتت الحياة، مرةً أخرى، أنها أكثر غرابةً من الخيال، وأكثر قسوةً من أي قصة يمكن أن يبتدعها الأدب.

فأشدّ السجون ظلمةً ليست تلك المصنوعة من الحديد أو الحجر، بل تلك التي يبنيها **جرحٌ قديم داخل عقلٍ مكسور**.

وهذا، ربما، هو أكثر ما يوجع في الحكاية:

أن الإنسان لا يسقط دائمًا حين ينهزم أمام العالم، بل حين يسمح لهزيمته أن تتحول إلى قدرٍ يفرضه على الأبرياء.

أما أوريليا، فقد خرجت أخيرًا إلى الضوء، لا لتنسى، بل لتفهم.

أن النجاة ليست محو الندبة، بل القدرة على حملها دون أن تتحول إلى قيد.

وأن الروح، مهما طال ليلها، تعرف دائمًا كيف تتبع الخيط الرفيع من الشمس... حتى تعود إلى نفسها.

كانت الوجوه جميعها مشرئبّةً نحوها، كأن الأعناق امتدّت من فرط الجوع إلى المعنى، وكأن العيون لم تعد عيونًا بقدر ما صارت نوافذ مفتوحة على هاويةٍ واحدة :**هاوية الحكاية**.

في تلك الغرفة الضيّقة، حيث الضوء الأصفر يتدلّى من السقف كاعترافٍ متعب، جلست الفتاة في منتصف الدائرة، ساكنةً على نحوٍ يثير الريبة، فيما كانت أنفاس الجالسين تتشابك في صمتٍ ثقيل، كأنهم يخشون أن تفسد همسةٌ واحدة توازن اللحظة.

كانت تروي قصتها بصوتٍ لا يُشبه الأصوات المعتادة؛ صوتٍ بدا كأنه خرج من جدارٍ قديم، من ذاكرة بيتٍ مهجور، من جرحٍ لم يندمل. لم يكن أحدٌ يعرف إن كانت تحكي عن نفسها، أم عن امرأةٍ أخرى تشبهها حدّ التطابق، لكن التفاصيل كانت حيّةً على نحوٍ مرعب: ارتجافة اليد حين انغلق الباب، رائحة المطر على الإسفلت ليلة الهروب، انكسار المرآة في اللحظة التي سقط فيها الخبر كالموت، وارتعاش القلب حين يكتشف الإنسان أن أقرب الناس إليه كان يحمل وجهًا آخر.

قالت وهي تسترسل، وعيناها معلّقتان في نقطةٍ بعيدة :

في تلك الليلة، لم أكن أهرب من أحد... كنت أهرب من النسخة التي صرتُها

تبادل الحاضرون النظرات. كانت الجملة أثقل من أن تُفهم سريعًا .أحدهم، رجلٌ تجاوز الخمسين، شبك أصابعه وسألها بصوتٍ متهدّج:

وهل نجا الإنسان يومًا من نفسه ؟"

ابتسمت ابتسامةً باهتة، كأن السؤال أيقظ داخلها غرفةً أخرى من الألم.

في داخلها، كان صوتٌ خفيّ يهمس :قولي لهم الحقيقة... قولي إنك لم تهربي، بل تركتِ روحك هناك ومضيتِ بجسدٍ فقط.

لكنها لم تقل. كانت تعرف أن بعض الحقائق لا تُقال، بل تُزرع في صمت المستمعين لتكبر لاحقًا ككوابيس.

تقدّمت في السرد، فأخذت تصف تلك الحادثة التي غيّرت مجرى حياتها: لحظة وقوفها أمام أبيها بعد سنواتٍ من الصمت، حين قال لها ببرودٍ اجتماعيّ قاسٍ:

نحن لا نختار ما نصير إليه، نحن فقط نرتدي ما يفرضه علينا الناس

يومها شعرت أن الأسرة ليست دائمًا حضنًا، بل قد تكون مسرحًا طويلًا لتوارث الأقنعة.

ومنذ تلك الليلة، أخذت تغوص في نفسها كما يغوص غريقٌ في بحرٍ يعرف أنه لن يخرج منه كما دخل.

كانت تسائل هشاشتها، خوفها من الرفض، حاجتها المرضيّة لأن يحبّها الجميع، غضبها المكتوم من مجتمعٍ يربّي أبناءه على الخوف من الحقيقة.

سألت نفسها مرارًا :من أنا حين لا ينظر إليّ أحد ؟ وكان السؤال يلتهمها أكثر من كل الإجابات.

حين انتهت، سقط الصمت على المجلس كستارةٍ سوداء. بعض الوجوه شحب، وبعضها اغرورقت عيناه، وآخرون بدوا كأنهم رأوا انعكاس حياتهم في مرآة صوتها.

رفعت رأسها ببطء، نظرت إلى الجميع نظرةً اخترقت أقنعتهم واحدًا واحدًا، ثم قالت بسخريةٍ مريرة، كأنها تطعن الصمت نفسه:

هل أعجبتكم قصتي ؟

لكن أحدًا لم يُجب .لأنهم أدركوا، متأخرين، أنها لم تكن تحكي قصةً لتُعجبهم...   بل كانت تجرّهم بلطفٍ أدبيّ قاسٍ إلى مواجهة القصص التي يخفونها عن أنفسهم.